مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام الأنبياء والمرسلين، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين، وعلى ذُرّيّته إلى يوم الدين.

أما بعد:

فلا يشك ناصحٌ لأمته أن سبيل نهضتها منوطٌ بأمور، من أجَلِّها وأهمِّها أن نُعيدَ إلى العلوم الإسلامية حيويتها وعُمقَها وأثرها في حياة الناس. وهذه الغاية الغالية العالية تستوجب جهوداً جبارةً في تجديد هذه العلوم، التجديدَ الذي يعيدها إلى ما كانت عليه في زمن سلفنا الصالح وخيرِ القرون، من خلال التجديد لمناهج التعلُّم والتعليم، وتخيُّرِ المناهج التي تُورثُ علماً حقيقياً وفقهاً عميقاً وإيماناً تزكو به النفوس.

وقد رغبتُ أن أُسهمَ في ذلك، بطرح خطة عَمَليّة تحقّقُ (بإذن الله تعالى) تكوينَ مَلَكَةٍ عِلْمِيّة لأحد أجلِّ العلوم، وهو علمُ التفسير.

ومرادي بالمَلَكَةِ التفسيرية: التأهُّلُ العلميُّ والذِّهْنيُّ لإدراك الفهم الصحيح للآية بالاجتهاد المبني على أدلته، لا تقليداً[1].

---

(١) الملكة: صفةٌ راسخةٌ في النفس، تحصل بتكرارٍ وممارسة.
هذا أشهر تعريف للملكة، كما في: التعريفات للجرجاني (٢٩٦)، والتوقيف على مهمات التعاريف للمناوي (٦٧٥)، والكُلّيات للكفوي (٧٥٢، ٨٥٦).
لكن ابن خلدون دقّق في بيانها، فقال في مقدمته (٢/ ٣٥٠): «وذلك أن الحِذْقَ في العلم واليقينَ فيه والاستيلاءَ عليه، إنما هو: **بحصول ملكةٍ في الإحاطة بمبادئه وقواعده، والوقوفِ على مسائله، واستنباطِ فروعه من أصوله**. وما لم تحصل هذه الملكةُ لم يكن الحذقُ في ذلك الفنِّ حاصلاً.
وهذه الملكة هي غير الفهم والوعي؛ لأنّا نجد فَهْمَ المسألة الواحدة من الفن الواحد مشتركاً بين من شدا في ذلك الفن ومن هو مبتدئٌ فيه، وبين العامي الذي لم يُحصِّل عِلْماً وبين العالم النِّحرير. والمَلَكة إنما هي للعالم والشادي في الفنون، دون من سواهما. فدلَّ على أنّ هذه المَلَكةَ غيرُ الفهم».
وفي موطن آخر (٣/ ٢٦١ ـ ٢٦٢) فرّقَ ابنُ خلدون بين معرفة قوانين العلم وملكتِه، فعقد فصلاً بعنوان: (في أن هذا اللسان غيرُ صناعة العربيّة ومستغنيةٌ عنها في التعليم)، ثم قال: «والسبب في ذلك أن صناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة، فهو علمٌ بكيفيّة، فليست هي الملكة. وإنما هي بمثابة من يعرف صناعةً من الصنائع علماً، ولا يُحكمُها عملاً... وهكذا هو العلم بقوانين الإعراب، إنما هو علمٌ بكيفية العلم، وليس هو نفس العلم. ولذلك نجد كثيراً من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علماً بتلك القوانين، إذا سُئلَ في كتاب سطرين إلى أخيه أو ذي مودّته، أو شكوى ظُلامة، أو قصدٍ من قُصوده، أخطأ فيها الصواب، وأكثر من اللحن...». إلى آخر كلامه البديع المفيد.
وقد تكلّم الأصوليون في شروط المجتهد عن أنه لا يُشترطُ في تكوين ملكته أن يكون عالماً بتفاريع الفقه، فقال الغزالي: «فأما الكلام وتفاريع الفقه فلا حاجة إليهما، وكيف يُحتاج إلى تفاريع الفقه؟! وهذه التفاريع يُولِّدُها المجتهدون، ويحكمون فيها، بعد حيازة منصب الاجتهاد، فكيف تكون شرطاً في منصب الاجتهاد، وتقديمُ الاجتهادِ عليها شرطٌ؟! نعم.. إنما يحصل منصب الاجتهاد في زماننا بممارسته، فهو طريقُ تحصيلِ الدُّربة في هذا الزمان، ولم يكن الطريقُ في زمن الصحابة ذلك. ويمكن الآن سُلوكُ طريقِ الصحابة أيضاً»، المستصفى (٢/ ٣٨٨). =

وقدمتُ لذلك بمدخل نظري لتأسيس الحاجة إلى تجديد التفسير، التي لولا تأسيس الاقتناع بها لما كان ثمة حاجة إلى الدعوة لتكوين ملكة التفسير[1].

وكان من بين أسباب اختيار هذا العلم خاصة لطرح هذه الخطة قبل غيره من العلوم، أنه مع جلالته التي لا يُستغربُ معها البَدْءُ به، أنه أحد أكثر العلوم التي قَلَّ المتفقِّهون فيها، واستقرَّ العمل في تدريسها (غالباً) على مجرّد التلقين الذي لا يؤدّي (غالباً) إلى الفقه الصحيح في العلوم. ونُظِّرَ لهذا المنهج غير السديدِ بتأكيد أمور: بذكر خطر علم التفسير، وحُرمةِ الكلام في التفسير بغير علم، وبـ«أيّ سماءٍ تظلّني وأيّ أرض تقلُّني إذا قلتُ في القرآن برأيي»! وهذا كله حقٌّ لا مرية فيه؛ لكنّ استثماره في إضعاف ملكة الفهم، وفي عدم التدرُّب على إثارة القوّة الذهنية وزيادة قُدْرَتِها على الفقه والاستنباط[2] = استثمارٌ خاطئ، لن

= وهذا ما قرّره عامة الأصوليين، فانظر: المحصول لفخر الدين الرازي الشافعي (٣/ ٢/ ٣٦)، والتحرير للكمال ابن الهُمام الحنفي، وشرحه: التقرير والتحبير لابن أمير الحاج الحنفي (٣/ ٣٩٢)، والبحر المحيط للزركشي (٦/ ٢٠٥)، وجمع الجوامع لتاج الدين السبكي، وشرحه: البدر الطالع للجلال المحلّي (٢/ ٣٨٣)، والتحبير شرح التحرير للمرداوي الحنبلي (٨/ ٣٨٧٨).

(١) أصل هذا المدخل التأصيلي، محاضرة أقيمت بدعوة من مركز تفسير للدراسات القرآنية، وأضيفت في هذه الطبعة الجديدة.

(٢) ليس المقصودُ بالاستنباط في هذا المقال (إذا جاء ذكره) الاستنباطَ الخفيَّ للفوائد والأحكام الفقهية، وإنما المقصود به مطلق الاجتهاد في الوصول إلى المطلوب، الذي هو هنا: فهم المعنى الأولي للآية. فالاستنباط واردٌ في مقابل التلقي للمعلومة من غيرك، دون إعمالك الذهنَ في محاولة إدراكها.

يؤدي إلا إلى إضعاف عِلْمِ التفسير، وإلى الوصول إلى ما وصلنا إليه: من قِلَّةِ أهل التحرير فيه، وإلى توقّف نمائه.. أو ما يقترب من التوقّف!!

لذلك قد رغبت في وضع هذه الخطة، التي هي نتاجُ تفكيرٍ عميق، وخبرةٍ في التعليم قاربت العقدين.

فأرجو أن ينظر فيها المعلِّمون؛ ليُفيدوا منها، ويضيفوا إليها ويهذّبوا فيها ما يزيد من جدواها. وأن يطبّقها المتعلِّمون؛ فسيجدون فيها (بإذن الله تعالى) ما يحققُ لهم أملَهم في الرُّقيّ بمستواهم العلمي، وما يقوّي مَلَكَاتِهم العلميةَ، ويُؤَهِّلُهم إلى مراتب أهل التحقيق (بتوفيق الله تعالى).

أسأل الله تعالى قبولها، وأن ينفع بها؛ إنه سميعٌ مجيب!